

أفعال الكلام المنشئة للخطاب النبوي في ضوء نظرية أفعال الكلام

أ: فتحة بوسنة

جامعة مولود معمري تيزي وزو

Abstract

This study aims to analyse and identify the speech act in the prophetic discourse that forms it. In our analysis that relied on a pragmatic approach, we have concluded that the relation between the coranic and prophetic discourses is specific. Consequently, it seems necessary to review some axiomatic speech act theory.

تعمل بعض مناهج تحليل الخطاب-رغم نجاعة ما قدمت من إجراءات- على عزل الخطاب عن سياقه ووظيفته، بل وعن طبيعته المختلفة، بحيث تتساوى الخطابات تحت إجراءاتها المسطرية. وهكذا يطبق بعض التداوليين نظرية أفعال الكلام بشكل آلي بين خطاب مُكَلَّف بإنجاز فعل قول وآخر ناشئ عنه كما هو الشأن مع الخطاب القرآني والخطاب النبوي، فيقع التحليل في محظورين: عزل الخطاب من جهة، ومساواته بما عداه من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال قوله تعالى: «**قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن**» الإسراء/53. تتضمن الآية من منطلق أفعال الكلام الأفعال التالية: **فعل قول**: الآية ذاتها. **وفعل في القول**: أمر الله تعالى (المرسل 1) رسوله (المرسل 2) أن يأمر العباد بقول مخصوص. **وفعل بالقول**: أمر المرسل 2 العباد بقول مخصوص وقول العباد قولاً حسناً.

وجدير بالملاحظة هنا أن الفعل بالقول تنشأ عنه خطابات متعددة من المرسل 1 نحو قوله صلى الله عليه وسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» (البخاري، رقم 6110). و«**إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق**» (البخاري، رقم 6112). كما ينشأ عنه خطابات متعددة من العباد، فكل قول حسن متضمن في الفعل بالقول.

والسؤال المطروح الآن هل يمكن عزل هذه الخطابات عن بعضها في التحليل؟ أي هل يمكن عزل الخطاب المُكَلَّف «قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن» عن الخطاب المُكَلَّف «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» وهل يمكن تجاهل خصوصية كل خطاب بحيث نطبق عليه الإجراءات نفسها؟

لا يمكن لأية دراسة لهذا الخطاب أن تدّعي العلمية إن تجاوزت ما اقتضاه الخطاب ذاته، ما دامت الدراسات العلمية الحديثة للخطاب تؤكد على ضرورة انطلاق التحليل من النص، لكن دون الاختصار عليه أو فصله عن سياقه، وعمّا عداه من نصوص تربطه بها علائق ظاهرة أو خفية. وعليه لا يمكن للباحث أثناء تحليله للخطاب النبوي أن يتجاوز إحالة هذا الخطاب إلى خطاب خارجه كآفه بمخاطبة الناس وتبليغهم رسالته في عملية من تبادل الإحالة، كقوله تعالى: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا» الأحزاب/45. وكقوله صلى الله عليه وسلم: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير...» البخاري، رقم 79.

كما أنّ لكلّ خطاب خصوصيته، من ظروف وجوده وملابسات قوله وظروف تلقّيه، وهو ما يتطلب الانطلاق من مغايرة كلّ خطاب لغيره من ألوان الخطابات المختلفة أي الانطلاق من الظاهرة المدروسة في وجودها الفعلي وليس من خصوصيات أنماط خطابية أخرى.

ومن هنا كانت عنايتنا بأفعال الأمر الموجهة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والتدقيق في مدلولاتها، فقد لفت انتباهنا ورود فعل الأمر "قل" بنسبة عالية في الخطاب القرآني، بلغت نسبة وروده 332 مرة¹، وهو ما يجعلنا نعتقد أن الأمر بفعل القول أساسي وجوهري في جملة الأوامر الموجهة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان رسالته تتمحور حول هذا التكليف تحديدا. ثم لاحظنا أن الأمر بالقول ورد بصيغ أخرى، بحيث يمكن تسميتها بأفعال التكليف بالقول أو أفعال التكليف بالخطاب منها: نبي، اتل، أذكر، ذكّر، اقصص، ادع، بلغ.

ودفعنا تنوع هذه الأفعال إلى النظر في صيغها وما تمدنا به كل صيغة من معنى. فلاحظنا فروقا دلالية ناتجة عن جملة من العلاقات هي:

- العلاقة بين المتخاطبين: أي تحديد المتكلم والمخاطب، بمعنى هل يظل المرسل للقول هو ذاته أم أن المجال يفتح أمام المخاطب ويتحول إلى مرسل متحمل لتكليف بالقول.

- **علاقة فعل القول بالفعل بالقول:** وهنا نتساءل عن مدى تحمل المخاطب مسؤولية القول عند فعل التكليف؟

- **علاقة سياقية:** ونقصد بها غياب أو حضور أطراف الخطاب في موضوع الخطاب، بمعنى يحيلنا الموضوع إلى مرجع ماضٍ، أو مرجع متعلق بالمستقبل.

- **العلاقة بين الخطابين:** وهي علاقة تنتج عن العلاقات السابقة، فتساءلنا: متى يحيلنا فعل التكليف إلى الخطاب الحاضر، ومتى يحيلنا إلى خطاب آخر غير منجز بعد، ينتج عن تحول المخاطب إلى مرسل متحمل لتكليف بالقول؟ وهل يحدث أن يحيلنا فعل التكليف إلى الخطابين معاً؟ وهو ما سيتضح لنا بعد النظر في هذه الأفعال:

1- الأمر بالإنباء: ورد الأمر بالإنباء في موضعين من القرآن الكريم هما: «نبئ عبادي أنني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم» (الحجر 49-50) و«ووبئهم عن ضيق إبراهيم، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً، قال إنا منكم وجلون» (الحجر 51-52).

وبالعودة إلى الأصل اللغوي للفعل نجد أن: «النبأ: الخبر والجمع أنباء..... ، والنبوء: المخبر عن الله عز وجل يقال: نبأ ونبأً وأنبأً»² و«النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحق الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعري عن الكذب، كالتواتر وخبر الله تعالى وخبر النبي صلى الله عليه وسلم..... ونبأته أبلغ من أنبأته..... ويدل على ذلك قوله: «فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال أنبأني العليم الخبير» (التحريم: الآية 3) ولم يقل: أنبأني بل عدل إلى نبأ الذي هو أبلغ تنبيهاً على تحقيقه وكونه من قبل الله³.

بناء على الأصل اللغوي للكلمة، يمكن تسجيل النتائج الآتية:

- يتعلق الأمر في الآيتين بمجرد إخبار النبي برسالة الله تعالى، ومن منطلق أفعال الكلام يكفي الفعل بالقول ترديد الآيات ذاتها من قبل المخاطب (النبي صلى الله عليه وسلم)

• انسجام تركيب الآيتين مع المعطى اللغوي للكلمة، يدل عليه استعمال الضمائر في الخطاب، فالمتكلم في الآيتين هو الله تعالى يُشير إليه ياء النسبة في قوله: عبادي (أنا) أي (أنا) عذابي (أنا)

واستعمال ضمير الغائب الذي يُشير إلى حكاية الله لقول إبراهيم عليه السلام وضيئه في قوله: إذ دخلوا (هم)، المقصود ضيف إبراهيم، عليه (هو)

المقصود إبراهيم، فقالوا (هم) أي ضيف إبراهيم، قال (هو) أي إبراهيم والمخاطب بهما هو الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن التكليف في القول يجعل منه مرسلًا ثانيًا (مرسل 2)، فهو الفاعل لفعل التكليف بالقول: "نبئ" وهو فعل التكليف بالقول، و"أنت": فاعل لفعل التكليف بالقول.

إلا أن مسؤولية "المرسل 2" تتوقف عند حدّ الإنباء برسالة "المرسل 1" يدل على ذلك، غيابه عن مضمون النبأ الذي يحيلنا إلى مرجع ماضٍ (قصة إبراهيم وضيئه) ومرجع غيبي مستقبلي (الله/ أخبار الآخرة). ولهذا فهو ينقله إلى المرسل إليه كما تلقاه جاهزاً مكتملاً من "المرسل 1". ومنه تتحدد مسؤولية المرسل إليه المتمثلة في تلقي الرسالة، لأنّه عند والفعل بالتكليف هو مفعول به:

نبئ: فعل أنت: فاعل عبادي (هم): مفعول به

وتكتمل الرسالة عند اكتمال التكليف واكتمال دورة التواصل فينتج خطاب أحادي هو: الخطاب القرآني. وقد أشار الخطاب ذاته إلى تحقق فعل التكليف بالعدول عن استعمال صيغة أنبئ إلى صيغة نبئ.

2- الأمر بالتلاوة: ورد أمر "المرسل 1"، "المرسل 2" بالتلاوة في الخطاب القرآني ست مرات هي: «واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق، إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر...» المائدة /27. «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها» الأعراف /175. «واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت...» يونس /71. «واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك...» الكهف /27. «واتل ما أوحى إليك من الكتاب» العنكبوت /45.

وبالرجوع إلى الأصل اللغوي للكلمة نجد أن: «تلا... تلوته تلوا: تبعته... وناقه مُتْلٌ ومُتْلِيَةٌ: يتلوا ولدها أي يتبعها... وتلوت القرآن تلاوة: قرأته»⁴ وبناءً على الأصل اللغوي للكلمة، لا يتعلق الأمر في هذا المستوى من الخطاب بالإنباء فحسب، وإنما بتلاوة النبأ أي جعله يتلو بعضه بعضاً، فلا ينقطع الإنباء عن المتلقي، كما نلاحظ أنّ الإنباء يتعلق بأخبار ماضية سابقة على المكلف أُخْبِرَ عنها من المكلف. فالمتكلم في الآيات هو "المرسل 1" يدل على ذلك استعمال الخطاب لضمير الغائب بعد "إذ" الذي يشير إلى حكاية "المرسل 1" للأنباء المذكورة.

فالمخاطب بها إذن هو "المرسل 2" الذي حُمِّلَ مسؤولية الفعل بالقول، فهو فاعل الفعل بالقول، بمعنى أنّ مسؤوليته تتوقف عند حد نقل النبأ، كما أُخْبِرَ به "المرسل 1"، وهو المعنى الذي ينسجم مع تركيب الآيات بحيث أنّ قوله «اتل

عليهم» يتعلق بالأركان التالية: أقول (أنا) فعل القول، أتل (فعل التكليف) (أنت) فاعل لفعل التكليف، عليهم وهم (مفعول به). ومثله الأمر بتلاوة الوحي فهو يتعلق بشيء سابق ناجز مكتمل محفوظ في كتاب معروف سلفا -معرف ب"ال" التعريف وبالإضافة - : «من كتاب ربك». «من الكتاب»، كما أنّ استعمال الخطاب لفعل ماض مبني للمجهول، يشير إلى أنّ المخاطب أوتي الوحي من غيره فهو غائب عن موضوع الخطاب: «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك» هود/ 49. «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك» (آل عمران/44) ومنه تتحدد مسؤوليته في مجرد تلاوة الوحي، كما أوحى إليه به. فالوحي جزء من هذا الكتاب المكتمل. وهو ما شهد له به الخطاب ذاته في قوله تعالى: «إن أتبع إلا ما يوحى إلي» الأنعام\50.

من هنا نلاحظ أنّ الأمر بالتلاوة يحيلنا دوماً إلى مرجع قبلي سابق مكتمل، لا يتحمل المخاطب إلا مسؤولية استحضاره باستمرار في كل خطاب حاضر. فالغرض من تلاوة القصص التفكّر المطلوب للعبادة، لقوله تعالى: «فأقصص القصص لعلهم يتفكرون» الأعراف/ 176. «لقد كان في قصصهم عبرة» (يوسف/ 111) والغرض من تلاوة الوحي بلوغ المعرفة الموجبة لعبادة الله تعالى لهذا يقول تعالى بعدها: «... وأقم الصلاة...»

نخلص مما سبق أنّ الأمر بالإنباء والتلاوة لا يترك للمرسل 2 مسؤولية في الفعل بالقول فهو في هذا المستوى مجرد ناقل لما كلف به. ويجسد حقيقة رسالة ووظيفة الرسول المسؤول الوحيد عنها. فهو في الإنباء لا يخبر إلا عن الله تعالى وفي التلاوة لا يتبع إلا الوحي، لهذا يتم التركيز على المخاطب (المرسل 2) لأنه المسؤول الوحيد على تلاوة الوحي والإنباء.

3- الأمر بالذکر (اذکر): ورد أمر "المرسل 1"، "المرسل 2" بالذکر في الخطاب القرآني خمس عشرة مرة، وقد لاحظنا عند استقرائها أنّ منها:
أ- ما يحيلنا إلى خطاب ماض جاهز مكتمل، كقوله تعالى:

«واذکر في الكتاب مريم، إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا» مريم/16.

«واذکر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبينا» مريم/41

«واذکر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبينا»

مريم/51.

فتتخلص مسؤولية "المرسل 2" في استحضار الخطاب في قوله، ومن منطلق أفعال الكلام يكفي للفعل بالقول ترديد الآيات كما وردت في الكتاب أو كما أخبر عنها "المرسل 1"، فقوله تعالى:

اذكر ← تكليف بقول "المرسل 1"
 أنت ← الفعل بقول "المرسل 2"
 في الكتاب مريم ← محتوى القول (قصة مريم)
 إذ... ← أداة يحيل ما بعدها إلى مرجع ماض.
 وقوله تعالى: «واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان
 بنصب وعذاب» ص/41

اذكر ← تكليف بقول (من المرسل 1)
 أنت ← فعل بقول المرسل 2
 عبدنا (نحن) ← فعل قول المرسل 1
 داوود ← محتوى القول (قصة داوود)
 إذ... ← مرجع ماض

نلاحظ في الآية الكريمة أنّ مضمون القول (قصة داوود) صادر من
 "المرسل 1" يدل عليه استعمال الخطاب لضمير المتكلم (نحن)، أما قول
 "المرسل 2" فهو فعل بقول "المرسل 1"، أي أنّه "فعل قول" بتكليف من
 "المرسل 1"، مضمونه ما جاء في قول "المرسل 1".

ب- ومنها ما تحيلنا إلى خطاب حاضر، إلا أنّ محتوى الذكر غير معطى،
 نحو قوله تعالى: «واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار» آل عمران/41
 «واذكر اسم ربك وتبئله تبتيلا» المزمّل/ 8

فمضمون التكليف هنا هو الدعاء والتسبيح، ويتطلب الفعل بالقول من
 المرسل 2 جهداً، وكلفة ينتج عنه خطاب هو الحديث النبوي، نحو قوله صلى الله
 عليه وسلم: «اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»
 نلخص ما سبق في الشكل الآتي:

اذكر

مرجع حاضر
 - واذكر ربك إذا نسيت

مرجع ماض
 - واذكر في الكتاب مريم

- واذكر عبدنا أيوب
- واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل
- واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة
- واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا

ينتج عن الفعل بالقول الخطاب القرآني ينتج عن الفعل بالقول الخطاب النبوي

كما نلاحظ أيضا في أمر "المرسل2" بالذكر، التركيز على المخاطب (المرسل2) ويبدو لنا أنّ غياب المرسل إليه عن الخطاب مرده إلى أنه هو الآخر يتحمل مسؤولية الفعل بالقول فيفتح التكليف على المرسل إليه في استحضار خطاب سابق جاهز مكتمل وهو الخطاب القرآني وهو المعنى المذكور في قوله تعالى: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر، كذبت عاد...» القمر/17. «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر، كذبت ثمود...» القمر/22

• إنشاء خطاب حاضر ينتج عنه خطاب المرسل إليه الخاص، وهو المعنى المذكور في قوله تعالى: « واذكروا الله كثيرا لعلمكم تفلحون» (الجمعة: 10) «فانذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم» (البقرة/ 198) ومن صور هذا الذكر في القرآن: «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه» آل عمران/191

ومن صورته في الحديث ما روى أحمد عن عبد الله ابن عمر أنّ عبدا من عباد الله قال: «يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانتك...»⁵ وعن أبي أيوب قال: «قال رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه: فقال رسول الله: من صاحب الكلمة؟ فسكت الرجل، وظن أنّه قد هجم من رسول الله على شيء يكرهه! فقال رسول الله (من هو؟ فإنّه لم يقل إلا صوابا. فقال الرجل: أنا قلتها يا رسول الله أرجو بها الخير! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لقد رأيت اثني عشر ملكا يبتدرون كلمتك. أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى"»⁶ ومما سبق يمكن القول أنّ الأمر بالذكر يفتح المجال "للمرسل2"، والمرسل إليه تحمل مسؤولية القول، لأنّ الذكر عبادة والعبادة لا ينفصل فيها الجانب القولية والعقدي والعملية.

4-الأمر بالتذكير(ذکر): ورد أمر المرسل² بالتذكير في الخطاب القرآني في ستة مواضع، وقد لاحظنا عند استقراءها ما لاحظناه في الأمر بالذكر، أي أنّ منها:

• ما يحيلنا إلى خطاب ماض جاهز مكتمل، في قوله تعالى: «وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت» الأنعام/70. «فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» ق/45.

وهذا يعني أن مسؤولية "المرسل²" تتوقف عند حد استحضار الخطاب القرآني في قوله. ومن منطلق أفعال الكلام يكفي للفعل بالقول ترديد آيات من الخطاب القرآني ولا يتحمل المرسل² مسؤولية من يذكر أو من يعرض، وهو المعنى المذكور في قوله تعالى: «فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر» الغاشية/ 21-22. «إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سُجداً» سجدة/ 15. «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها» (الكهف/57)

• ومنها ما يحيلنا إلى خطاب حاضر غير منجز، يتطلب الفعل بالقول كلفة وجهداً من "المرسل²"، منها قوله تعالى: «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» الذاريات/55. «وذكرهم بأيام الله» إبراهيم /5. «فذكر إنما أنت مذكر» (الغاشية/ 21). فمضمون التذكير غير معطى في هذه الآيات، وهو ما يتطلب من "المرسل²" إنشاء خطاب خاص يتم به تذكير المرسل إليه. نلخص ما سبق في الشكل الآتي:

ذكر

مرجع ماض	مرجع حاضر
-ذكر به أن تبسل نفس بما كسبت -فذكر بالقرآن من يخاف وعيد	-ذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين -وذكرهم بأيام الله

ينتج عن الفعل بالقول الخطاب القرآني ينتج عن الفعل بالقول الخطاب النبوي

ونلاحظ في أمر "المرسل²" بالتذكير ما لاحظناه في الأمر بالذكر التركيز على المخاطب (المرسل²) وتغيب المرسل إليه، ويبدو أن مرد ذلك أيضاً أنه هو الآخر يتحمل مسؤولية الفعل بالقول، فينفتح التكليف على المرسل إليه بالطريقة نفسها، التي بينها في الأمر بالذكر.

ومن صور إنشاء خطاب حاضر ينتج عنه خطاب المرسل إليه الخاص، ما لا حصر له من خطابات الدعاة من عهد النبوة إلى قيام الساعة.

5-الأمر بالقص: ورد أمر "المرسل²" بالقص في الخطاب القرآني مرة واحدة، في قوله تعالى: «فأقصص القصص لعلمهم يتفكرون» الأعراف/176

ويبدو لنا أن عدم تكرار الأمر بالقص راجع إلى أن المرسل 2 متَّبَع فيه القص القرآني، فالقص «تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره والقصص الأثر... ومنه قيل لما يبقى من الكلا، فيتتبع أثره: قصيص، ... والقصص الأخبار المتتبعه»⁷. أي أن مواصفات القص النبوي مستمدة من مواصفات القص القرآني، والتي يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

1- **القص القرآني إتباع لأثر، فهو:**

أ- سابق زمانا: وهو المعنى المذكور في قوله تعالى: «كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق» طه/99

ب- سابق ذاتا: أي أنها أحداث قام بها أناس سلفوا، نحو قوله تعالى: «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك» غافر/78

ج- سابق موضوعا: منها ما ذكر الخطاب القرآني من أخبار بني إسرائيل في قوله تعالى: «إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون» النمل/76

أي أن مضمون القص القرآني غيب من وحي الله تعالى، وهو ما عبّر عنه الخطاب القرآني بعد ذكر قصة زكريا ومريم ويحي، في قوله تعالى: «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون» آل عمران/44.

2- **القصّ القرآني حدث حقيقي:** وهو المعنى المذكور في قوله تعالى: «نحن نقص عليك نبأهم بالحق» الكهف/13 «إن هذا لهُو القصص الحق وما من اله إلا الله» آل عمران/62.

3- **الهدف من القصّ القرآني العبرة:** إنّ اتباع الأثر الماضي وإن بدا سيرا إلى الأمام إلا أنه في حقيقته سير في طريق الماضين قصد «الاعتبار والعبرة بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المُشاهد إلى ما ليس بمشاهد»⁸ يقول الله تعالى: «لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب» يوسف/111.

4- **التكثيف والإيجاز:** وهي صفة مرتبطة بالهدف من القص، لذلك لا يعتني القصّ القرآني بتفاصيل الأحداث والتحديد الدقيق للزمان والمكان والأشخاص. وبالنظر في سمات القص النبوي نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم يُكمل فعل القص في الإطار نفسه، أي أنّ إستراتيجية فعل القص في الحديث النبوي محددة سلفا، فهو يقص أحداثا تاريخية ماضية وقعت حقيقة⁹.

وهذا ما تدل عليه لغة الحديث، فقصة التوبة على سبيل المثال تبدأ كما يلي: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا...»، فلغة الحديث (أو طريقة سرد القصة) توحى إلى أنها ليست من نسج الخيال، فلو «أراد شيئا من ذلك لجأ به على طريقة المثل وليس على طريقة الرواية التاريخية، فنحن نؤمن بأن هذه الوقائع التي صاغها رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبارته البليغة حدثت بالفعل في بني إسرائيل، وأن الله أخبره بوقائعها، شأنها شأن غيرها من الوقائع التاريخية التي وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف»¹⁰ لأنه لا سبيل للرسول صلى الله عليه وسلم إلى معرفة الغيب إلا عن طريق الوحي. فـ «مصدر القصص القرآني والنبوي واحد وهو الوحي»¹¹. وهو ما أكدته الخطاب القرآني في أكثر من موضع، منه قوله تعالى: «وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين» القصص/44. «تلك من أنبا الغيب نوحها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين» هود/49 أي أن «أخبار الماضين وقصصهم ليس لها مصدر إلا الوحي، سواء أ جاءت في سورة قرآنية أو في حديث نبوي، ولا فرق. فالذي أخبرنا بهذا هو نفسه الذي أخبرنا بهذا صلى الله عليه وسلم»¹². غير أن القصص النبوي وإن كان إتباعا للإستراتيجية العامة للقصص القرآني إلا أنه مضمونه يختلف عن مضمون القصص القرآني، يتحمّل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم كيفية أدائه في إطار الإستراتيجية العامة للقصص القرآني.

2- **الأمر بالدعوة والتبليغ:** فيما يخص الأمر بالدعوة "ادع" والأمر بالتبليغ "بَلِّغ"، فنلاحظ أن لهما وضعاً خاصاً، ضمن منظومة الأفعال المنشئة للخطاب في القرآن الكريم.

فالأمر بالدعوة "ادع" يشمل الأوامر السابقة، ويرتبط بها وفق المحور التراتبي، أي يتعلق بسيرورة إنجاز أفعال التكليف بالقول وبمعنى آخر، يمثل الأمر بالدعوة سبيل إنجاز أفعال التكليف بالخطاب وفق إستراتيجية مسطرة سلفاً، فتكون الدعوة بالتذكير تارة بالقص تارة أخرى، وهكذا... بناء على ما يتطلبه سياق القول، ولعله المعنى المذكور في قوله تعالى: «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة» (يوسف/108) بحيث أن سبيلي هو سبيل الدعوة إلى الله، أما على بصيرة، فتعني وفق إستراتيجية محددة سلفاً.

أما الأمر "بالتبليغ" فيمثل مقصدية التكليف بالخطاب ومنتهاه، فكل فعل أمر من الأفعال المذكورة هو صورة من صور التبليغ يكتمل باكتمالها، وينتفي بإهمال صورة من صورها، كونها الرسالة المكلف بتبليغها، وهو المعنى المذكور في قوله تعالى: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته» (المائدة/67) أي عليك أن تبلغ الرسالة بكل تفصيلاتها وجزئياتها.

كان ما سبق محاولة منّا لتصنيف أفعال "التكليف بالخطاب" في القرآن الكريم، فعلى الرغم من انضوائها معجمياً ضمن فعل الأمر بالقول "قل" -وهو منطلق أو أصل التكليف بالقول- وارتباطها به وفق ما بيّنناه في بداية المقال. إلا أنّ التمييز بينها دلالياً أوصلنا إلى جملة من الملاحظات -أوردناها في حينها - ولعل أهمها ما ينتج عن هذه الأفعال من خطابات (قرآن / حديث) وهي قضية محورية، لا تستقيم الدراسة دون ضبطها علمياً (تداولياً)، فينتج مما سبق أن الحديث النبوي، وخلافاً لكل الخطابات البشرية، لا يصدر عن رغبة في القول ولا يعبر عن حالة نفسية، كما يقول بذلك غريماس وجاك فونتاني في كتابيهما الموسوم بـ "سميائية الأهواء" إذ اهتما بالحالة النفسية للمتكلم وما يعتريه من مشاعر وانفعالات وأهواء، وافترضوا أن الكلام هو صدع بما يوجد فيها أي أنّ «الهوى هو أساس الدلالة»¹³ في الخطاب.

فألخطاب النبوي، إذن، يصدر عن تكليف بالقول، وهو المعنى المذكور في قوله تعالى: «وما ينطق عن الهوى، أن هو إلا وحي يوحى» النجم/3.
«أصدع بما تؤمر...» (الحجر/94) وبمعنى آخر هو فعل إنجازي لأفعال الكلام المنشئة للخطاب في القرآن الكريم.

الهوامش:

- 1- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الجيل، بيروت، 1945، ص 571.
- 2- ابن منظور، لسان اللسان تهذيب لسان العرب، إشراف علي مهنا، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1993، ص 586.
- 3- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ط1، دار ابن الجوزي، مصر، 2012، ص 533.
- 4- ابن منظور، لسان اللسان تهذيب لسان العرب، ص 113.

- 5- محمد الغزالي، فن الذكر والدعاء عن خاتم الأنبياء، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1998، ص 141.
- 6- م ن، ص 142.
- 7- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص 446.
- 8- م ن، ص 352.
- 9- ينظر، عبده زايد، من أسرار النظم في القصص النبوي، دار الصابوني، د ب، د ت، ص 40.
- 10- م ن، ص 40.
- 11- م ن، ص 45.
- 12- م ن، ص 46.
- 13 - Greimas & Fontanille, Sémiotique des passions, seuil, 1991, p 110